حول النظرة الاستشراقية لعصر محمد علي

أحمد صادق سعد

١ ـ المقدمة

غرضُ هذا المقال مناقشة الفكرة المحورية **لادوار سعيد في** كتابه «الاستشراق»[١]، ونقصد ابرازه للمركزية الاوروبية في هذا المجال، بما تنطوي عليه، لا من أطروحات ومقولات منافية للوقائع والعلم فحسب، بل من مضامين سياسية ومفاهيم عامة استعماري وعرقية. وهي فكرة نوافق عليها بدركة كبيرة، رغم بعض التحفَّظات حول الموضوع؛ ومنها: إن المؤلف لم يتعرَّض لزاوية نرى إثارتها، وهي التيار الاستشراقي العربي ـ إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الذي نريد به التيار المتبني للعديد من مضامين المركزية الاوروبية، وإن كان على أسسٍ مختلفة بعض الشيء ـ فرغم المزايا الكبيرة للكتاب المذكور، إلا أنه اقتصر على نقد الجانب الأوروبي فقط، وكأنه قطع العالم إلى نصفين: أسود تماماً، فأبيض الذيل بالكامل، هو... نحن الشرقيين. ولا أعتقد أن هذه الصورة تعكس الحقيقة، ولا أنه من المفيد لنا ـ قبل غيرنا ـ أن تُرسم على هذا الشكل.

ونظراً لأن مسح أعمال الاستشراق جميعا في هذه المناقشة أمر واسع، فسوف نجريها بطريقة عينية ملموسة، أي حول عصر محمد علي. وقد اخترنا هذا المحور لعدة أسباب، ومنها:

ـ لأن هذا العصر لعب دوراً خاصاً أساسياً في التاريخ المصري الحديث، فالموقف منه له انعكاسات نشعر بها حتى اليوم.

ـ لأن هذا العصر كان موضوع جدل ودراسة من أيامه حتى الآن، الأمر الذي يمكننا من تتبع بعض الخيوط على مدى الزمن الطويل.

ـ لأن هذا العصر بالذات يثير قضايا منهجية في غاية الأهمية، ومنها مثلاً: دور الفرد في التاريخ، وإعادة قراءة المصادر الاصلية ـ العربية والتركية والافرنجية ـ بعين تحليلية نقدية.

وبطبيعة الحال، لا تتناول السطور التالية المصادر العربية نفسها الخاصة بهذا العصر، ولا أعمال عدد كبير من البحاثة المصريين والعرب عامة، لأنها لا تقع في ميدان الاستشراق بمعناه المحدّد؛ وقد اكتفينا بأخذ نماذج فقط من الكتابات الاستشراقية الصادرة في فترات متتالية، ويجري حديثنا على أساس أن الأحداث الهامة لعصر محمد علي معروفة لقرائنا الكرام.

٢ ـ قضايا أساسية

وقبل تناول الموضوع ذاته، نود أن نثير ثلاث قضايا بخصوصه، إذ سنجدها تتكرَّر، بصورة أو بأخرى، في الأعمال المشار إليها:

القضية **الأولى** هي: هل يمكن فهم عصر محمد علي دون البحث عن الظواهر السابقة عليه، والتي انتصب على أرضيتها؟ وبتعبير آخر، هل خلق محمد علي «مَصْرَهُ» الخاصة من العدم (Ex nihilo)؟ إذا كان الرد بالإيجاب، **فلن يعني فقط توافر قوة خارقة في هذا الشخص، وليس أيضاً انكاراً أنه كان لمصر وجود وتاريخ قبله فحسب،** بل يعني ـ فيما يتعلّق بموضوع المركزية الاوروبية ـ **أنَّ** جانباً من الخوارق **التي أتمها، يعود إلى الخبراء** والمستشارين الاوروبيين (والفرنسيين خاصة) الذين استعان بهم بشكل أساسي، **والذي يشكّل وجودهم لازمة من** لوازم «الدولة العلوية» لا يمكن عزلها عنها.

ولهذه القضية زاوية أخرى: هل كانت ثمة قوة اجتماعية داخلية، **مصرية،** اعتمد عليها نظام محمد علي أم لا؟ وكمثال ملموس، **فهل شق طريقه إلى العرش اعتماداً على المناورات فقط التي توجد باستمرار توازناً جديداً أقرب إلى صالحه، ودون أن تكون عملية صعوده استجابة لقوى عريضة؟! وبعد أن نحّى جانباً المشايخ الذين ولّوه، هل بقي حاكماً بفعل الأمر والواقع والسوط فقط؟ إن الإجابة بنعم على هذين السؤالين تعيدنا إلى السؤال** السابق؛ وإن كانت ترى أن دور محمد علي كفرد منفرد لم يكن شيئاً مستمراً، **وأن هناك فترات متقطعة قامت فيها** علاقة بين القوى الاجتماعية المصرية ومؤسس الأسرة العلوية.

وتتعلق القضية **الثانية،** بهزيمة النظام أمام التهديد الاستعماري الاوروبي في نهاية الأمر. **فهل كانت هذه** الهزيمة بسبب التفوُّق العسكري الغربي عدداً وعدةً، دون غيره من الأسباب، أم أيضاً لأن دولة محمد علي كانت تتضمَّن في سياستها وهيكلها وآلياتها الاجتماعية الاقتصادية بواطن الضعف الكامن، **وهو الذي رجّح الكفة الأوروبية في الحقيقة؟** إن تأييد الاتجاه الأول يفسِّر تلك الهزيمة، بما توصف بالمؤامرة الاستعمارية **التي تحاك في** الظلام، والتي نجحت بفضل الصدفة، وكون محمد علي قد غفل عنها في سهوٍ من الزمن. **ومع ما ينطوي عليه هذا** الرأي من إشفاق على المغلوب على أمره، غير أنه يبرز القوة الاستعمارية، **وقدرتها على حبك المؤامرات**

الناجحة، وعلى أن تهدم في لحظات قليلة ما بنته دولة مصرية كبرى في سنوات من الجهود المضنية.

والقضية **الثالثة** هي: مع التسليم بأن البحث التاريخي مفيد من زاوية الاستزادة بالمعلومات، **فما هو نوع العبرة** التي تستخلص من الأحداث التاريخية الماضية؟ هل نقوم بفرز «الإيجابي عن السلبي» حتى نتعلّم **ألا نكرّر** الأخطاء السابقة؟ وبتعبير آخر، هل نقوم بما يمكن أن يُسمى بالنقد الاسطوري لتلك الأحداث والنقد الاخلاقي لشخصياتها؟ أم نعاملها معاملة العلم للظواهر (مع التحفظات الواجبة في ميدان العلوم الانسانية) بمعنى أن نبحث عن قوانين تداعيها، فنقوم بعملية نقد تحليلي قاصدين السيطرة بها على سيرنا؟ في تقديرنا، أن الاتجاه الأول ليس فقط يحوّل علم التاريخ إلى عِظة أخلاقية، بل يجعلنا ننظر إلى أنفسنا كقُصَّرٍ ما زلنا نحتاج إلى تربية. فمن الطبيعي أن يتولّى غيرنا المسؤولية عنا. وَمَنْ يكون هذا الغير سوى الاوروبيين، أو على أحسن الأحوال ـ المتأوربين منا؟

لقد أردنا بالسطور السابقة أن نوضح علاقة تلك القضايا الثلاث بمحور حديثنا عن الاستشراق، وهو المركزية الاوروبية، وذلك كأرضية للاستطراد التالي[٢].

٣ ـ رحلة في الاستشراق حول محمد علي

من المراجع الأساسية عن عصر محمد علي، مراسلات القناصل والمبعوثين الاوروبيين وتقاريرهم. وتَشَكُّل عشرات المجلدات الضخمة، تولّى نشرها عدد من الأجانب ـ وكثيرون منهم مستشرقون بل مستعربون ـ بتشجيع من بعض أمراء البيت العلوي في مصر، وخاصة الملك فؤاد، بين العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. وما يهمنا هنا، ليس الوثائق نفسها وإنما المقدمات الطويلة التي كتبها هؤلاء الناشرون والتي يعبرون فيها عن آرائهم.

نشرت المجموعة الأولى في العام (١٩٢٥)، تحت إشراف **جورج دوين**[٣]، وهو ملازم في البحرية الحربية الفرنسية، أصدر ستة مجلدات أخرى، منها اثنان مترجمان عن الصينية يتعلّقان بشخصيات البلاط الامبراطوري وتقاليده، وأربعة عن الحروب البحرية والقرصنة في المتوسط، وخاصة في ظل نابليون. ونقرأ في الفقرة الأولى لتمهيده لمراسلات القناصل الفرنسية في مصر بين (١٨٠٢ ـ ١٨٠٤) ـ وهي الفترة التي صعد فيها محمد علي مقترباً من السلطة[٤]:

«مصر... التي يسكنها شعب ذو فضائل اختص بها آلاف السنين، قد وُهبت ايماناً لم تخدشه القرون الاثنتا عشر التي عاشتها (في ظل الاسلام). إلاّ أنها تتميَّز بأنها ولدت إلى الوجود السياسي منذ قرن واحد فقط. فحينذاك **أخرج رجلٌ مصر من العدم**، وكان هذا الرجل هو محمد علي...»[٥].

« إن المحفوظات المصرية مفعمة بالوثائق . . . ومع ذلك **ترقد مصر في هذا التراب**، بل يمكن التأكيد أنه لن يكون من المستطاع كتابة هذا التاريخ إلاّ بعد فرز هذه الوثائق وتحليلها **وترجمتها**؛ وبالتأكيد، **فهذه عملية هائلة**، ولكن مَنْ يستطيع الادعاء بأنها فوق طاقة البشر؟ يكفي، لكي يتم تحقيقها، أن توجد بعض النِيَّات الحسنة التي تناصرها إرادةٌ أعلى »[٦] .

يذكرنا هذان النصان بتلك التي أوردها ادوار سعيد طوال كتابه، إذ يقولان: لقد كانت مصر موجودة منذ آلاف السنين، تعتنق الاسلام منذ الفتح . ولكنه كان وجوداً كالموت، وبالأحرى، فهو اللاوجود . ورجلٌ واحدٌ أخرجها من هذا العدم في سنوات قليلة بعد تلك القرون التي لا تعد . وإذ رحل محمد علي، فقد عادت مصر، وماتت . وها هي ذاتٌ ترقد في تراب؛ لأن وثائقها ملقاة، وما مصر سوى أوراق البرديات والمخطوطات، دون حياة من نفسها . إنها تنتظر من يحييها، بأن يترجم هذه الوثائق إلى لغة أوروبية، لغة الحياة، وينفث فيها البعث الذي سبق أن أنهضها على يد رجل خارق . فبين محمد علي وأوروبا في هذه الكتاب تبادلية ضمنية في القدرة على تحويل العدم إلى الوجود والكيان؛ ومن دونها تموت مصر . ولقد توفي محمد علي، ولكن أوروبا ما زالت قائمة وما زال سلطانها فيها، تساندها الارادة السماوية .

وفي العام (١٩٣٠)، صدرت مجموعة أخرى من تلك المراسلات، تحت إشراف فرنسي آخر هو **ادوار دريو**[٧]، وإلى القارىء ثلاثة مقتطفات من تقديمه:

« كانت مصر نهباً لفوضى المماليك وخرابهم . . . وأوقد بونابرت مرة ثانية نور هذا البلد الذي تشرق فيه الشمس، وحيث أشرقت الحضارة في الماضي . . . إنه لم يمكث في مصر أكثر من سنة أو يكاد، فكان مثل النيزك الذي يمر ويشتعل فيختفي . . . وترك الشرق لمحمد علي الذي وجدت فيه أوروبا ـ وانجلترا خاصة ـ نابليون آخر . ولقد ولد محمد علي في نفس سنة ميلاد نابليون، وحل محله بالضبط غداة رحيله، وفتح عهداً جديداً . وفي الوقت الذي كان نابليون قد وقع ضحية لأوروبا، وتقيِّده الأغلال في جزيرة سانت هيلينا، كان محمد علي يؤسس في الشرق أمبراطورية أوسع من تلك التي انهارت منذ قليل »[٨] .

وإذ ذكر **دريو** أن نابليون كان له « برنامج جيل » للتفاهم مع الاسلام، استطرد قائلاً: « إن إرادة الوالي المطلقة خفضت الحواجز الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين، تلك التي لم يكن من المستطاع من قبل تخطيها »[٩] .

وإليكم ملاحظته الرئيسية: « لقد كانت حكومته (يقصد حكومة محمد علي) نموذجاً « للاستبداد المستنير »، فهي تجعلنا نتذكر الملوك والوزراء المصلحين في القرن الثامن عشر بأوروبا، الذين جعلوا من الفلسفة أو الاقتصاد السياسي المرشد التشريعي لامبراطوريتهم، مثل فردريك الثاني، وجوزيف الثاني، وبرنشتورف، وبومبال »[١٠] .

هنا نجد نفس الخيط الفكري الذي رأيناه عند **دوين**، ولكنه أوضح وأشد تجسيداً. **فدريو** يعتمد على ما حول نابليون من هالة أسطورية، لكي يجعله هو الذي أخرج مصر من الظلمات إلى النور، ويشبِّه الأمبراطور الفرنسي بالسيارة الفلكية المنيرة ذات الذيل الناري، أي بكيان سماوي أقرب إلى ملكوت الله. وها هو محمد علي يرث من نابليون قدراته، لأن الاثنين ولدا في وقت واحد، ويتولى الباشا الشرق الذي تركه له الفرنسي الواقع في أسر أوروبا، وبهذا يكون محمد علي الشبيه ونابليون المشبه به والمعيار. ويتخذ ملوك أوروبا ووزراؤها في «عصر الأنوار» مقياساً للاستنارة، وإن كانت تبدو بدرجة أقل لدى المصري. بل نابليون هو السيد الحقيقي لمصر في نظر دريو، ومحمد علي كأنه أسفل منه يلتقطها. ومثلما كاد نابليون أن يصير مسلماً، كاد محمد علي أن يمسي مسيحياً. ولكن هناك إيحاء بأن خطوة الأول كانت تنازلاً، وخطوة الثاني كانت ترقياً للشعب المصري وللوالي ذاته.

وبعد الفرنسيين، ننتقل الآن إلى مؤلفة انجليزية هي **هيلين ريفلين**[11] التي يعتبر عملها من أمهات المصادر لدراسة السياسة الاقتصادية لمحمد علي، وسوف نجدها أقل حماساً من الفرنسيين نحو محمد علي، وإن كان جوهر تفكيرها لا يختلف عمَّا بناه سابقوها من صورة. ويُلاحَظ أمران بهذا الصدد: الأول، إن ريفلين تلميذة **هاملتن جب** المستشرق البريطاني الكبير المعروف بقاعه الاستعماري، وقد تمّت الأطروحة التي نحن بصددها تحت إشرافه المباشر[12]. والأمر الثاني، إن المؤلفة انتهت من كتابة بحثها في (١٩٥٩)، فنجد فيه التلميح إلى النظام المصري القائم وقتذاك، وقد أصبحت المقارنة بين نظامي محمد علي وجمال عبدالناصر، وكذلك بين شخصيتيهما من الأمور المألوفة في الأدبيات السياسية الأوروبية والعربية.

تبدأ ريفلين بالتأكيد على أن مؤلفها قمة، فتقول بلا تواضع:

«رغم أن بحثاً تالياً قد يسد النواقص الباقية ويصحح أخطاء (في الكتاب)، فإني أشك جداً في أنه سوف يناقض جوهرياً الصورة المركبة التي خلقتها من الوقائع المتفرقة والمستخلصة من عدد كبير من المصادر الموجودة في بلادٍ شتى، وهي الوقائع التي لم يسبق أن جُمعت معاً من قبل»[13].

وتختتم الكاتبة دراستها بتحليل نفسية محمد علي، وبتقديم ملاحظاتها وآرائها والعبرة التي تستخلصها من التجربة التاريخية، فنقتطف الآتي من الصفحات (٢٥١ ـ ٢٥٤):

«إذ كان الباشا المصري استغرقه طموحه الشخصي استغراقاً تاماً، فقد استخدم الوطنية العثمانية كحيلة يعزِّز بها أهدافه الخاصة، وأخذ برنامجه الإصلاحي وسيلة لتحقيق أغراضه... ولم يكن كفاحه في سبيل الاستقلال نضالاً من أجل الاستقلال المصري، بل محاولة ليترك تركة مضمونة لذرّيته. وقد حقَّق غرضه، فدفع

بمصر دون قصد في طريق الاستقلال القومي؛ وفي الوقت نفسه سدَّد الضربة القاضية التي **لم تفق منها الامبراطورية العثمانية** أبداً . . . » .

« يمكن تقسيم سيرة محمد علي إلى أربع مراحل: كفاحه من أجل السلطة، احتجازه السلطة لنفسه، توسيع سلطته، ونقل السلطة إلى ورثته . وفي جميع هذه المراحل احتاج إلى جيشٍ قوي، ومورد دخل لا ينضب. وعليه، صاغ سياسة عسكرية وسياسة ضرائبية صممتا لتعطياه هذا وذاك . . . » .

« من الناحية الايجابية، وفَّر محمد علي رأس المال للمحاصيل النقدية، محوِّلاً الزراعة المصرية من الاقتصاد الكفافي إلى اقتصاد المحصول النقدي . . . وإذ أتى بمصر إلى مدار التجارة الاوروبية، فقد نقل محمد علي هذا البلد حتماً إلى دائرة الحضارة الاوروبية، وإن كان هذا ـ للأسف ـ على أشد المستويات سطحية . . . » .

« ومن الناحية الثانية، قوَّض (محمد علي) الامبراطورية العثمانية، وفتح الطريق للتغلغل الاستعماري الغربي . . . وعلاوة على ذلك، إذ جرَّد الطبقة الدينية من استقلالها، فقد شل محمد علي الطبقة الوحيدة القادرة على ممارسة نفوذ يكبح جماح الطبقة الحاكمة . . . وعليه، فقد أضعف قادة الشعب وهدم المؤسسات الواقية، دون أن يوفر في الوقت نفسه ما يلزم لتطوير قيادة جديدة ومؤسسات جديدة يمكن أن يبني عليها مجتمع صحي في مصر . . . » .

« إن التفكيك الثقافي، المترتب على سياسة محمد علي التربوية المبتورة، أمر يستحيل تقديره، ولكن آثاره ما زالت محسوسة في مصر اليوم دون جدال . . . » .

« في ظل محمد علي، ارتفع الدخل القومي . ومع ذلك، فقد فشل في تحسين ظروف الفلاحين . . . » .

« لقد هدم محمد علي أيضاً الطبقة التجارية الأهلية، والطبقة الحرفية الأهلية، وبهذا كبت تطوُّر طبقة وسطى مصرية ونمواً صناعياً مصرياً . وبالإضافة، فقد أقام محمد علي نمطاً من الملكية الواسعة للأرض حال دون انبثاق طبقة **مسؤولة** من المزارعين الصغار . . . » .

« وبتعبير مختصر، كادت مساهمة محمد علي أن تكون أكثر إثارة للإعجاب، لو ضبط طموحاته الخاصة، وكرَّس طاقاته لتحسين ظروف الشعب . . . » .

وتجري الفقرة الأخيرة للخاتمة كالآتي: « كان محمد علي يحسن صنعاً، لو ساعد السلطان العثماني في نضاله ضد الانتهاكات الغربية، بدلاً من أن يخونه فيقدم للأمم الاوروبية فرصة لكي تقرِّر مصير الامبراطورية . . . حقاً، لقد حقق الباشا المصري هدفه بإقامة أسرة وراثية في عائلة محمد علي . ولكنه فتح أيضاً الباب للتدخل الاوروبي، قبل أن تكون لمصر مؤسسات متطوّرة تستطيع أن تساعد المصريين على أن يلاقوا تحدي عهد جديد فيدافعوا عن استقلالهم ضد هجمات الامم الاوروبية النهَّابة » .

يختلف خط **ريفلين** عن خطي **دوين ودريو،** في أنها تبدو أكثر اتزاناً منهما، لأنها تذكر النواحي الايجابية والسلبية لسياسة محمد علي. وينطوي هذا تحت ما أشار إليه **ادوار سعيد** أيضاً، من الفوارق القومية بين الاستشراقين الفرنسي والانجليزي، خاصة وأن محمد علي كان أقرب إلى الحلف الفرنسي(١٤)، ولكن الجوهر واحد في رأينا، بل قد يكون اتجاه **ريفلين** أشد دهاء وأعمق دساً...

- إذا كان دوين ودريو اعتبراه خالق مصر ووريث النيزك النابليوني في الشرق: فقد أعادت ريفلين كل ما جرى، خلال السنوات الأربعين تقريباً التي حكم فيها، إلى طموح الرجل الشخصي وأن السلطة كانت تمثل كل شيء في نظره. ومن حيث العوامل الصانعة للتاريخ، فلا يوجد شيء قبله ولا بعده لدى الباحثة البريطانية كما لدى المستشرقين الفرنسيين. وفي الحقيقة، فالذي يظهر أن مصر غائبة، والحاضرة أوروبا. ويلاحظ هذا حتى في الأسلوب نفسه الذي تستعمله ريفلين: فعند الحديث عن مصر، تتحدث عن شخص واحد: الباشا المصري، أو محمد علي، أو نظام محمد علي. وعند الحديث عن أوروبا تتكلّم عن أشياء كبيرة («القوى الاستعمارية»)، أو بصيغة الجمع («الأمم الاوروبية»). وبهذا، يبدو الحاكم المصري أصغر وأوروبا أهول. وإن كانت قد وصفت القوى الاوروبية بالاستعمارية والأمم الاوروبية بالنهّابة؛ فهذه السيئات محملة على مفاهيم غير مشخصة، وتبدو أقل وطأة من تلك السمات المكيافيلية العديدة التي صوَّرت بها محمد علي بطريقة بارزة وحيَّة، لأنها مشخصة في ملك مطلق.

- بعد أن قالت ريفلين، في مقدمتها للكتاب، إنها تشك في أن يستطيع باحث بعدها الوصول إلى نتائج أفضل ممّا أتت به، نراها تسدي في خاتمتها النصائح: ضرورة المحافظة على طبقة المعممين والتجار والحرفيين المصريين. وأن يكبت الحاكم طموحاته الشخصية فيوجه طاقاته للأخذ بأيدي الفلاحين. وعدم الانفصال عن الامبراطورية التي تنتمي إليها مصر إلى أن تقوى المؤسسات التي يستطيع بها المصريون الدفاع عن أنفسهم. وإذ تكتب هذا في عام (١٩٥٩)، فلنصائحها رنين الرسالة إلى من أجرى تغييرات في الأزهر وألغى الوقف ووضع قيوداً على النشاط الفردي التجاري والصناعي وانفصل عن الامبراطورية (وإن كانت بريطانية هذه المرة...)، وهو أيضاً، الذي يقال عنه إنه أطلق لطموحاته العنان. وبصرف النظر عن هذا الهمس الضمني لمصر الناصرية، فنرى الكاتبة تضع في صف «ايجابيات» محمد علي، أنه دفع بمصر نحو الرأسمالية - مساويةً بينها وبين الحضارة الاوروبية - ولكنها تأخذ عليه، أنه لم يقم بهذا إلى النهاية، الامر الذي حدّ من حضارة مصر في المستوى السطحي. وهذا هو الدرس الذي يعطيه كتاب ريفلين لقرائه: إن حضارة المصريين ستظل سطحية طالما لم يجتهدوا لاستكمال النظام الرأسمالي ومؤسساته في بلدهم، لأن الحضارة والرأسمالية وأوروبا مترادفات. وأنه، إلى أنْ يتم هذا، فالأضمن لمستقبل مصر أن تحافظ على ارتباطها بامبراطورية ما.

عند ريفلين، نجد أن المركزية الاوروبية تشكلت طبقاً لأوعية الصراع الفكري الحديث، دفاعاً عن الأحلاف الاستعمارية.

ـ تتعلق أطروحة ريفلين بسياسة محمد علي الزراعية في مصر، ولكن استنتاجاتها ونصائحها تتصل بدائرة أوسع من هذا المجال، وقد وقعت هنا في الاعتماد على وقائع غير صحيحة:

فليس صحيحاً أن محمد علي « جرَّد الطبقة الدينية » من استقلالها. وذلك أولاً، لأن هذه الطبقة لم تكن مستقلة أصلاً في أي فترة من فترات التاريخ المصري، إذا استثنينا ـ وبتحفظات ـ أجزاء من القرن الأول الهجري تقريباً. وفي العهود الأقرب، كانت هذه الطبقة لصيقة الارتباط بالدولة المصرية؛ ونعرف أن عدداً كبيراً من المشايخ اشتركوا في الديوان في ظل الاحتلال الفرنسي، وإذا لم يكن نقيب الأشراف وقتذاك ـ الشيخ عمر مكرم ـ منهم، فلأنه كان مرتبطاً بالسلطة العثمانية.

والحق، إن المعممين الكبار لعبوا دور القنطرة بين الدولة وبين الطبقة الشعبية المصرية، وليس هذا باستقلال. ومع ذلك، فهل هو، محمد علي، الذي جرّدهم وحده من هذا الوضع؟ تبيِّن المراجعة المتأنية لرواية **الجبرتي** أن هؤلاء المشايخ ـ بما فيهم عمر مكرم ـ ولُّوا محمد علي، لأنه تركي وعسكري وقادر على القضاء على الحركة الشعبية التي كانت قائمة عند سقوط خورشيد[١٥]، ولم يقبلوا أن يتولوا الحكم بأنفسهم، بل ظلُّوا يلتمسون من الباب العالي بقاء محمد علي والياً إلى أن استقر له الأمر. فالحقيقة، أن تلك الطبقة تنازلت عن دورها السابق بذات العملية التي رفعت فيها الباشا الجديد إلى أريكة مصر.

وهل قضى محمد علي على التجار والحرفيين؟ نجد مثلاً اسم كبير التجار ـ « **الشهبندر** » المحروقي يلازم أعمال محمد علي الكبرى، بما فيها الحربية منها (الحملة على الوهابيين)؛ وأن نصف الواردات تقريباً في تلك الفترة، كان يتم جلبه بمعرفة التجار الأفراد. وكذلك ظلت الصناعة الحرفية قائمة رغم إنشاء المصانع الحديثة، وكان أغلب الضياع الجديدة (الشفالك) على مقربة من الأسواق والمراكز الحرفية[١٦]. والمعروف، أن المصانع التي أنشأها محمد علي لم تغطِّ جميع فروع الانتاج، لكي تقضي على الحرفيين كما تقول ريفلين. وعلى كل حال، أغلقت هذه المصانع في نهاية عهده، فهل بقيت مصر بلا حرف؟ إن هذا الموضوع مثار مناقشة لا تزال جارية بين البحاثة؛ وكان الأفضل على المستشرقة البريطانية أن تجعل كلامها أقلّ حسماً في تأكيداتها، وتحيطه بالتحفظات اللازمة.

وكذلك ليس صحيحاً، أن موقف محمد علي بالاستقلال عن الامبراطورية العثمانية، هو الذي أدى إلى تدخل أوروبي كان الباب العالي يكافحه. بل الذي حدث، أن هذا التدخل كان سارياً ومتزايداً منذ قرن ـ على الأقل

- قبل تولي محمد علي. وبالاضافة، نرى القوات الانجليزية تحارب متحالفة مع الجيش العثماني ضد الحملة المصرية في سورية، وتضغط الدول الاوروبية على محمد علي لكي يوقف حربه للآستانة. وكانت الحكومة العثمانية سبَّاقة في إعطاء امتيازات تجارية وسيادية للاوروبيين، وأُجبر محمد علي على قبولها إجباراً على قبولها (الغاء الاحتكار التجاري). فالحقيقة، أن الباب العالي وأوروبا كانا في ناحية واحدة بالأوقات الحاسمة في تلك الفترة، ومصر في ناحية مقابلة. وهو عكس المعلومات التي تعتمد عليها ريفلين في نقدها لسياسة محمد علي.

ليس غرضنا هنا أن ندافع عن محمد علي، مثلما لم يكن غرضنا أن نهاجمه عند ذكر كتابات دوين ودريو. ففي اعتقادنا، أن الرأي عن فترة تاريخية مضت لا يمكن أن يأخذ مضمون الموقف الذي ينخرط فيه السياسي إزاء الأوضاع الآنية. ولكن الأمر يزداد سوءًا إذا كان مبنياً على معلومات خاطئة أو ناقصة وموجهة توجيهاً مغالطاً، مثل الطريقة التي انتهجتها ريفلين. إن الكاتبة تنعي على محمد علي جشعه وطموحاته واستبداده. غير أن التاريخ الاوروبي نفسه مليء بالملوك الجشعين والمستبدين القساة، وخاصة في فترات الانتقال الاجتماعي، مثل هنري الثامن بإنجلترا، ولويس الحادي عشر بفرنسا، فما الجديد؟، وكذلك نجد الكاتبة تتمنىّ أن يقع التحوُّل الرأسمالي في مصر دون الآلام التي فرضها حكم محمد علي على الفلاحين؛ غير أنها تنسى أن التحوُّلَ الاوروبي في نفس الاتجاه، من قبل، كلَّف الفلاحين في الغرب أضعاف أضعاف هذا العذاب في عمليات طردهم من أراضي مزارعهم، وقَمْعِ انتفاضاتهم وحَرْق منازلهم وذَبْحِ الآلاف منهم وإعدام زعمائهم[١٧]. هذا، فضلا عن حروب الغزو والإبادة الكتلية في الهند واستراليا وأميركا الشمالية والجنوبية وإفريقيا، التي لازمت الفترة التمهيدية للثورة الصناعية الاوروبية، وهي الفترة التي تم فيها تجميع ما يُسمَّى بالتراكم البدائي للرأسمال الغربي.

فإذا أردنا المقارنة، لعل عملية التحول كانت أهون في مصر منها في أوروبا. ولكنَّا لا نريد المقارنة، لأن الرأسمالية سيئة في جميع الأحوال، ونرفض أن تجرَّنا ريفلين إلى أرضيتها الفكرية.

وكذلك تسعى خاتمة ريفلين إلى إقناعنا بأن مصر لم تكن لتقع فريسة للاستعمار الاوروبي لو كانت استكملت تطوّرها الرأسمالي عمقاً. ويبدو لنا أنها تعنِّف الوقائع التي تدخلها في قوالب ذهنها. فالتاريخ المصري يكاد يعطينا درساً نقيضاً، إذ نرى التغلغل الاستعماري يزداد كلما سارت مصر نحو الرأسمالية؛ ولدينا مثال لذلك في عهد المماليك السابق لمحمد علي، وهو الذي كان قد بدأ فيه تطوُّرٌ رأسماليٌ واضح في مصر (ظهور الفلاحين المعدمين، وانتشار الزراعات السلعية في شمال الدلتا والصعيد، وتمايز طبقات التجار والحرفيين والرأسماليين الزراعيين)[١٨]، فنرى التحالفات والمعاهدات التجارية المجحفة لمصر، توقَّع لصالح الامتيازات الاجنبية، للجانب الانجليزي حيناً والفرنسي حيناً آخر. والمثال الأوضح بإجراء المقارنة بين تجربة الحملة الفرنسية ونظام محمد علي: فنعتقد أن ثمة علاقة بين المقاومة الواسعة والناجحة التي لقيتها الأولى، وبين أن رسملة مصر لم تكن

ساعتئذ قد نضجت بعد؛ وكذلك الأمر في السنوات الاولى لتولّي محمد علي (فشل حملة فريزر عام ١٨٠٧). أمَّا بعد ذلك، فتهبط فعالية المقاومة الشعبية للاستعمار الاجنبي وتضيق حركتها مع بناء ما يُسمَّى بالنظام الجديد.

هذا وتستمر خيوط نفس الفكرة بعد ذلك. إليكم مثلاً كتيِّبٌ صدر عام (١٩٦٦) بلندن، بعنوان **«مصر: البلد وشعبه»**[١٩]، وفيه مسح سريع يستجيب للاهتمام الدولي بمصر في ذلك الوقت. ونقرأ فيه بالفقرة الخاصة بالفترة التي تلت انسحاب الحملة الفرنسية:

«وحينئذٍ برز ضابط ألباني شاب يدعى محمد علي، ليملأ فراغ السلطة الموجود بمصر... لقد حافظ محمد علي على القانون والنظام بفضل مزيج من الحذق والقسوة. ويُعتبر عموماً مؤسس مصر الحديثة، بسبب محاولته إيجاد انتقال من الاقتصاد الكفافي القائم إلى الاقتصاد المركب الحديث الذي كان يتطور في أوروبا. ولقد استخدم مصر كأداة يحقق بها طموحاته في العظمة والسلطان. وإذ سار وصولاً إلى أهدافه، فقد وضع حجر الأساس لمصر الحديثة... فَتَحْتَ يده الحديدية عرفت جميع قطاعات الاقتصاد القومي تحسناً»[٢٠].

هنا أيضاً، نجد حذق محمد علي وقسوته ويده الحديدية التي تجبر الاقتصاد المصري على التحسُّن إجباراً بغرضٍ واحد هو إشباع جوع الحاكم المصري للعظمة والسلطان. لا بل ثمة تعبير جديد، وهو «ملء فراغ السلطة». وقد استخرج من ترسانة الألفاظ الاعلامية الأميركية، عندما أرادت الولايات المتحدة أن تحل محل قوات الاحتلال البريطانية الراحلة عن قناة السويس.

وننتقل أخيراً إلى مقالٍ هام، صدر عام (١٩٧٧) لكاتب (أميركي فيما نعتقد) اسمه **آلن ريتشاردز** بعنوان: **«التراكم البدائي في مصر، ١٧٩٨ - ١٨٨٢»**[٢١]، ويمتاز هذا المقال بالجدة، لأنه يحاول البحث عن مقولة من مقولات الاقتصاد السياسي الحديث - التراكم البدائي - في عصر محمد علي، وهو أمر لم يسبق إليه أحد من المدرسة التاريخية المعاصرة، بقدر علمنا. ومع ذلك، نرى في كتابة ريتشاردز نفس جوهر المركزية الاوروبية، وإن كانت تتخذ أشكالاً جديدة في أحيان.

- فرغم أن الباحث مطلع على الدراسات الجيدة الخاصة بالعصر الثاني في ظل الحكم العثماني، إلاَّ أنه لم يلتقط منها الدلائل على بدء التطورات الرأسمالية المصرية خلالها (ومنها وجود «الأوسية» كشكل أقرب إلى ملكية الأرض الفردية يعمل فيها العمل المأجور بصورة جزئية)، بل نراه يقول إنه لم يحدث أي تغيير في ما كان ينتج، وطريقة الإنتاج، وشكل تنظيم العمل والاشراف عليه[٢٢].

- ولذلك نجد الكاتب يواجه تغييرات في عصر محمد علي، فيراها مفاجئة، لا أساس لها في المجتمع المصري ذاته، ويضطر - مثل سابقيه - إلى تفسير التطورات التي جرت بارادة محمد علي فحسب، ورغبته في اقامة

امبراطورية كبيرة[٢٣]، وإن كان يرى أن تحقيق هذا الهدف أنتج الدفعة إلى تحول مصر الرأسمالي.

ـ وهنا يأتي بيت القصيد، إذ يجد ريتشاردز في أوروبا اللقاح الذي أدخل الرأسمالية في مصر، يقول: «نتيجة المتلاقي الظرفي بين نمو النظام الرأسمالي الاوروبي على النطاق العالمي وبين العلاقات الإجتماعية الداخلية في مصر، فقد خُلقت (في مصر) أزمة جهازية، ولكن كان يستحيل حلّها لقيام تلك العلاقات الاجتماعية الداخلية. إلاّ إذا تم تغيير «قواعد اللعبة». ولقد سعى محمد علي (وعلي بك قبله) إلى ذلك، فكان «الحل» بواسطة إقامة نظام مصري على نطاق عالمي، أي امبراطورية. غير أن واقع الأمر أن محمد علي، أثناء عملية سعيه إلى مثل هذا الحل، إنما شرع بإدماج مصر في النظام الرأسمالي العالمي. وكنتيجة مباشرة، أصاب التحويل علاقات الإنتاج الاجتماعية والتقنية في الزراعة»[٢٤].

المرة بعد الأخرى، نجد مستشرقاً يرى أن عامل التغيير أو محرّكه عامل خارجي عن مصر، ويأتي من أوروبا. إن المركزية الاوروبية تعصب عيني هذا الباحث ـ الجيد على العموم ـ وتمنعه من رؤية تداخل العوامل المختلفة والدور المحوري الذي لعبته العوامل الداخلية، وإن كان دفيناً.

ـ وقد حالت المركزية الاوروبية، أيضاً، دون أن يرى ريتشاردز الأشكال الخاصة التي اتخذتها في مصر بعصر محمد علي، عملية قيام «العمل الحر»، أي المنتجِ المعدم. فهو يظن أن تحرير الفلاحين من الارتباط بالأرض تم بواسطة العمل المسخر والضرائب الثقيلة[٢٥]، وينسى أن الدولة أقدمت على إصلاح زراعي فعلي إذ وزّعت ـ وهو أمر معروف ـ الأرض على الفلاحين قِطعاً متساوية تقريباً. وقد تم انتزاع الأرض من الفلاحين بعد ذلك بمدة (وخاصة بعد ١٨٣٨) بواسطة القوة المباشرة في بعض المناطق، وهي التي أقيمت فيها العُزب الرأسمالية التابعة لأفراد البيت المالك و«محاسيبهم». فعملية التحويل الرأسمالي في مصر كانت أكثر تعقيداً مما صوّره ريتشاردز ـ والمدرسة الاستشراقية عامة ـ، وهو الأمر الأساسي الذي جعلها غير مستكملة النضج.

٤ ـ الاستشراق المصري في المدرسة التاريخية القومية[٢٦]

سبقت الإشارة إلى أن أحد أوجه النقد التي يمكن توجيهها إلى كتاب **ادوار سعيد** «الاستشراق»، هو أنه أهمل وجود تيار فكري عربي يتبنّى المفاهيم الجوهرية للمركزية الاوروبية. وقد جرت العادة على تفسير ذلك بما يسمى بـ «التثاقف» أي التطبع بالثقافة غير الأصلية؛ ومع تسليمنا بأن هذه الظاهرة موجودة بالفعل، إلاّ أننا نعتقد أن الأرضية الفكرية لدى فئات اجتماعية معينة من البورجوازية القومية المصرية كانت خصبة لها مسبقاً، بسبب التشابه العضوي الجوهري بينها وبين الرأسمالية الاوروبية. فتبنّي تيار كامل من المثقفين المصريين لمفاهيم المركزية الاوروبية، لا يعود بالضرورة إلى ضعف حبهم للوطن ـ وسوف نضرب أمثلة بمفكرين لهم احترامهم

ومركزهم في المجال الوطني - كما لا يعود أيضاً، بطبيعة الحال، إلى ما يبثه البعض من دعاية على أن الثقافة العربية ضعيفة أصلاً، فتُهزم أمام الثقافة الاوروبية، فتحل هذه محل تلك في العقول.

ونبدأ بفقرات ذات مغزى، من كتاب أصدره في أواخر القرن الماضي القائد الوطني المصري الكبير **محمد فريد** عن تاريخ محمد علي[٢٧]:

« ولد ممدِّن مصر المغفور له محمد علي باشا . . . »[٢٨].

ويذكر أنه، بفضل محمد علي، حدث تغيير شامل في مصر: « وبالجملة، أصبحت مصر ذات بهجة ونضارة وزهرة غضارة، بل أضحت مدينة السلام ودارة الاستسلام ومناراً للعلم وعلماً للحق، فاتسق النظام واستتب المرام والتأمت الحال بعد أن استحال وأخصب القطر وأثرى، فزالت فاقته وانتشرت إفاقته، واستوفرت أسباب التقدُّم بعد أن أوشكت أركان التمدن أن تنهدم »[٢٩].

وعند ذكره لثورة الشام الأولى على محمد علي، يقول: « ومما زاد أهل الشام انحرافاً عن محمد علي باشا، أمره بنزع السلاح من جميع الأهالي لأنهم من شعوب غير مؤتلفة وديانات مختلفة وعادات ليست بمتفقة، ولذلك لا ينقطع الشقاق بينهم الأمر الذي يفضي غالباً إلى استعمال السلاح »[٣٠].

ففي رأي **محمد فريد**، أن محمد علي مدَّن مصر (بعد أن كانت وحشية . . .)، وأن النظام الذي أقامه كان خير المراد من رب العباد؛ وهذا كله بفعل الرجل وحده. أما عن قهر **ابراهيم** لأهالي الشام، فتجريده إياهم من السلاح، فهو يفسره بأن السلطة المصرية أرادت به أن تحول دون الاقتتال بين السوريين: إن هذا الوطني الكبير، (الذي كان على اتصال وثيق بالحركة الاشتراكية والعمالية الاوروبية): يتكلَّم عن الشعب في سورية باعتباره قاصراً، وهو نفس المنطق في جوهره الذي يأخذ به الاستعمار الاوروبي لتبرير سيطرته على بلدان العالم الثالث.

ونجد اتجاهاً مشابهاً، في كتاب **عبدالرحمن الرافعي** عن محمد علي؛ والذي صدرت طبعته الأولى في حوالى (١٩٢٨)[٣١]. ويُلاحَظ أن الرافعي كان من الأعضاء البارزين في الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ومحمد فريد، كما أنه مؤسس المدرسة التاريخية القومية. وتعتبر سلسلة كتبه عن تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى ثورة (١٩٥٢) من المراجع الأساسية التي تثقفت عليها أجيال متتالية من المناضلين والمفكرين الوطنيين المصريين، يقول الرافعي مثلا:

« إن محمد علي هو أول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الحوادث السياسية، وإنه من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية، ودور من ادوارها التاريخية؛ اقترن ظهوره بظهور العامل القومي، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به والياً ومختاراً على مصر. ولقد برهن بعد أن تولى الحكم

على أنه أكبر بناء في صرح القومية المصرية »[٣٢].

« ... إن استقلال مصر كان ثمرة الحروب التي خاضت غمارها في عصر محمد علي، تلك الحروب التي بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة أبنائها... الذين سقوا أديم الأرض بدمائهم في ربوع مصر والسودان وفي صحاري جزيرة العرب وجبال كريت والمورة وبطاح سورية والأناضول... والحقيقة البارزة التي تخلص لك من إنعام النظر في تاريخه، أن عبقرية محمد علي يرجع إليها الفضل الكبير في تنظيم ذلك الجهاد واستثماره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها؛ كما أن مواهب الأمة المصرية وحسن استعدادها للتقدم، وماضيها في الحياة القومية، كل أولئك مادة الاستجابة لدعوة محمد علي، ومن جميعها تَكوَّن الفلك النوراني لتلك النهضة التي سطعت شمسها في عصره... إن معجزة الجيل الذي عاش في عصر محمد علي، أنه حقَّق لمصر استقلالها، وألف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن... ولئن اعترض ذلك الاستقلال قيود حالت دون جعله استقلالاً تاماً، **فلم يكن ذلك عن تقصير** في الجهاد، بل لأن الدول الاوروبية قد تألَّبت على مصر بتحريض من السياسة الانجليزية فحرمتها ثمرة انتصاراتها... الأجيال المتعاقبة... بدلاً من أن تنهض بالدفاع عنه (يقصد الدفاع عن الاستقلال، « أ. ص. س. »)، وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام... قد تهاونت وقصرت في الذود عنه حتى رزئت البلاد بالاحتلال البريطاني ١٨٨٢، فتصدَّع البناء الذي أقيم في عصر محمد علي »[٣٣].

ولا تحتاج هذه النصوص إلى كبير تعليق، بعد ما ذكرناه من قبل، فالخيط الفكري بين **الرافعي ومحمد فريد، ثم بينهما** وبين **الاستشراق الاوروبي** ـ والفرنسي خاصة ـ واضح. غير أن الرافعي يتميَّز بأنه يُدخل ما يسميه « العامل القومي »، الذي يقصد به حركة المقاومة ضد الحملة الفرنسية السابقة لمحمد علي، وضد حملة فريزر البريطانية، وضد السيطرة العثمانية إلى درجة أيضاً. غير أن المراجعة لما كتبه الرافعي تبيِّن أنه يعطي الدور الأول لشخص محمد علي، أما الشعب، فله فقط « حسن استعداد للتقدم » ولبذل الدماء. وليست في الصورة التي يقدمها ظلال ألوان تبيِّن انتباهه لمغزى حركة المعارضة الشعبية لمحمد علي. فالقيود على الاستقلال الذي حققه الوالي لا تعود في رأيه إلى خصائص نظامه، بل إلى المؤامرة الاوروبية بتحريض الانجليز. إن عبدالرحمن الرافعي يمجِّد التجربة دون تحفّظ على ما تضمنته من نفوذ أجنبي منذ البداية، ومن مآسي التحوّل الرأسمالي، وكذلك من نزعات استعمارية مصرية في حروب الجزيرة والسودان والمورة (ضد الحركة الوطنية اليونانية وقتذاك)، والشام. ولا تمييز في نظره بين ما كان النظام المصري حليفاً للباب العالي أو معادياً له. وهنا، وبالتحديد، يتضح أكثر من قبل لماذا قلنا أن تبني تيار فكري مصري لمضامين المركزية الاوروبية لا يعود فقط إلى عملية التثاقف، بل وفي الأساس إلى أن هذا التيار أخ للذهنية البورجوازية الاوروبية.

وأخيراً، نجد كتاباً صدر عام (١٩٧٢) لاثنين من الأساتذة البارزين في المدرسة الحديثة والمتقدمة للتاريخ المصري المعاصر[٣٤]، وهما: **أنيس وحراز**، ونراهما يأخذان على محمد علي «الإطاحة بطبقة المشايخ وهي من أعمدة القوة البورجوازية الوليدة»؛ وذلك، برأيهما، لأنه كان في مقدور هذه الطبقة أن تقف في وجه الغزو الاستعماري الاوروبي[٣٥]. وهي نفس الفكرة التي التقينا بها لدى **ريفلين** من قبل، ولا نقصد هنا أن أنيس وحراز نقلاها منها بالضرورة؛ ولكن فـ ـ الثلاثة ـ إذ يتعرضون لانتقال مصر إلى النظام الرأسمالي، إنما يسترجعون ما حدث في أوروبا الغربية بهذا الخصوص، وهو أن القضاء على الملكية وانتصار البورجوازية كانا من الشروط التاريخية لمقاومة الحلف الرجعي المعادي لفرنسا مثلاً، وانزال الهزيمة به. ويبدو، بطبيعة الحال، أن هذا ليس بالضبط الذي حدث في مصر، إذ توحي المظاهر بأن نجاح محمد علي في إزاحة كبار المعممين والإطاحة بمركزهم الاقتصادي فتح الباب لقيام طبقة من كبار الملاك (أي ما ينظر إليه على أنه النظام الاقطاعي)، وسقوط مصر بالتالي فريسة للسيطرة الاجنبية. ولكن ثمة عدة نقط يتعثر عليها هذا التحليل في محاولته تطويع الوقائع المصرية للنموذج الاوروبي:

... فكبار المعممين هؤلاء، كانوا أيضاً حائزين على «التزامات» عقارية كبيرة، ومن هنا، كانوا ينتمون اقتصادياً إلى طبقة المماليك أكثر من كونهم يعارضونها. وهذا رغم أن دور كبار المشايخ في السلك الديني وقتئذٍ كان مختلفاً عن المماليك من الناحية الاجتماعية، كما كانت سلطتهم السياسية أضعف بدرجة كبيرة. ومن المنطقي ـ والحال هذه ـ أن يُطاح بهم لإتمام عملية القضاء على السلطة المملوكية.

... وكذلك، فنظم الاستثمار الزراعي في الضياع الكبيرة (الشفالك والابعاديات) التي تكونت في عصر محمد علي، نقول إن هذه النظم كانت أقرب إلى الرأسمالية (من حيث استخدام الآلات، واليد العاملة المأجورة، وزراعة المحاصيل النقدية)، عن النظم السابقة. وعليه، يكون انتزاع الأراضي من كبار المشايخ أمراً مرتبطاً بالتطوير الرأسمالي.

... والحقيقة، إن مجموعة كبار المعممين تلك لم تُظهر ـ بشكل عام ـ صلابة شديدة إزاء الغزو الاجنبي، كما سبقت إشارتنا إليه. وفي هذه الحالة، نعتقد أنه يجب البحث عن أسباب ضعف مصر إزاء الهجمة الاستعمارية في نواحٍ أخرى، غير مسألة إزاحة المشايخ عن مراكزهم السياسية والاقتصادية. وفي رأينا أن أسباب الضعف المصري وقتذاك ـ بل لمدة طويلة بعد ذلك ـ تكمن في طبيعة الطبقة الحاكمة نفسها والبورجوازية المنبثقة منها. ولكن هذه قضية، ليس هذا المقال مجال مناقشتها.

وبهذه المناسبة، قد يكون من المستطاع أن يقتفي الباحث آثار فكرة ريفلين ـ وأنيس وحراز بالتالـي ـ تراجعياً حتى منبعها في فترة حملة نابليون؛ فالعلماء الفرنسيون الذين أتوا معها إلى مصر، والضباط المحيطون

ببونابرت، هم أول من قارنوا بين المجتمع المصري والنظام الاقطاعي السابق للثورة الفرنسية، فرأوا في المماليك المصريين نبلاء إقطاعيين، وفي الفلاحين أقناناً، وفي كبار المشايخ قادة الفكر المتحرِّر من أمثال فلاسفة الأنوار. فظن الفرنسيون أنهم سيجدون تأييداً في مصر من الفلاحين والمعمَّمين ضد المماليك[٣٦]. ولقد خاب اجتهادهم، ليس فقط لأنهم أرادوا استخدام تحليلهم أداة للسيطرة الافرنجية على مصر، بل أيضاً لأنهم وقعوا في خطأ أساسي منذ البداية في ذلك المنطق المنطلق من المركزية الاوروبية. ومع ذلك، أمسك أغلب المستشرقين بذلك الخيط في عناد، لأنه يخدم الإدعاء بأن وضع مصر تحت الوصاية الأجنبية يحرِّر الفلاحين من نير الاقطاع. وسلك درباً مشابهاً العديد من البحاثة المصريين عندما وضعوا أملهم الوطني في قدرة البورجوازية المصرية.

إن بعض الباحثين المصريين دفعوا بنقدهم للمركزية الاوروبية (وهو نقد صحيح أساساً) إلى مدى اتخاذ الموقف المعادي والمضاد تماماً للحضارة الاوروبية بكاملها، والقول إن «مفتاح المبادرة التاريخية» في العملية العالمية لتطوُّر الحضارة البشرية قد انتقل إلى أيدي الشرق منذ (١٩٧٣) (سنة انتصار فيتنام على الولايات المتحدة، ومصر على اسرائيل)[٣٧].

ولا يستطيع كاتب هذه السطور مجاراة هذا الاتجاه، وليس فقط على أساس نظري بحت ـ بأن عملية البناء الحضاري العالمي تتجه أكثر فأكثر نحو الترابط الانساني بين مكوناته المتنوِّعة الأصول والتراث والتيارات ـ بل أيضاً لأن العودة الى موضوع الاستشراق تحديداً، تجعلنا نتذكَّر كم وجدنا في الأعمال الاستشراقية من معلومات وتحليلات واتجاهات ناقصة في دراسات أخوتنا من المواطنين المصريين أو العرب لأسباب عدة. وتكفي النظرة السريعة الى قوائم المراجع التي يذكرها أشد العلماء يقظة إزاء المركزية الاوروبية، إذ نرى بينها عدداً لا بأس به من الكتابات الافرنجية.

وأخيراً، فهل كل عمل استشراقي مرادف لنتاج المركزية الاوروبية؟ الواقع، أن هناك اتجاهاً معارضاً للمركزية الاوروبية أخذ يقوى بين المستشرقين أنفسهم. وما دام مقالنا يركز على تاريخ محمد علي، فلا بد في هذا الصدد من ذكر كتاب هام لباحث أميركي اسمه **بيتر جران**[٣٨] عن الشيخ حسن العطار (استاذ رفاعة رافع الطهطاوي). ففي حين أن الباحثين جميعاً ـ عرباً وافرنج على السواء ـ كانوا يبرزون دائماً أن **العطّار** تثاقف على أيدي الحملة الفرنسية، واكتسب أفكاره البورجوازية التحررية من تأثير الذهنية الاوروبية، يبيِّن **جران** وجود خلفية فكرية أصليّة لدى هذا الشيخ ومحيطه من قبلِ حضور الحملة، خلفيةً أخصبتها تطوُّرات لتيارات صوفية معيَّنة ومنبثقة من التراث الاسلامي. يقول جران مثلاً:

«أؤكد أن المناطق غير الغربية التي عاونت في التحول الاجتماعي الواسع بأواخر القرن الثامن عشر، كانت لها جذور أصلية لثقافتها الرأسمالية الحديثة الخاصة، وقد تكوَّنت من خلال عمليات نضال أهلية وفي بعض أشكال

الكفاح من الجانب الاوروبي»[٣٩].

وختاماً، نعتقد أن الموقف الموضوعي من الأعمال الاستشراقية يمكّننا، ليس فقط، من فرز المفيد من الضار فيها - وبالتالي من إدراك تاريخنا بصورة أعمق - بل يجعلنا أيضاً - وفي الوقت نفسه - نصبُّ خصوصيتنا في التيار الحضاري العالمي الشامل.

الحواشي

(١) ادوار سعيد: **الاستشراق**، نقله إلى العربية كمال أبو ديب - مؤسسة الابحاث العربية بيروت، ١٩٨١: (٣٦٦ ص). وفكرة المركزية الاوروبية لحم الكتاب وسداه، وتجري في جميع صفحاته بحيث يستحيل الاكتفاء بالإشارة إلى بعضها.

(٢) فيما يتعلق بفرضياتنا وآرائنا، نرجو الرجوع إلى مؤلفنا **تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى النمط الرأسمالي** - دار الحداثة، بيروت ١٩٨١. وخاصة الفصلين الرابع والسادس.

(٣) Georges DOUIN: (éd): **L'Egypte de 1802 à 1804** (Correspondance des Consuls de France en Egypte), Le Caire, Société Royale de Géographie d'Egypte, 1925.

(٤) التعريب والإبراز من عندنا.

(٥) G. DOUIN: **Op; cit;, p.** III de l'Introduction.

(٦) G. DOUIN: **Ditto, p.** IV.

[وكتب الحرف الاول للفظ **الارادة** الأخير بالنص الفرنسي بالشكل المكبر Volonté بمعنى أنها إرادة الله].

(٧) Edouard DRIAULT: **«L'Egypte et l'Europe. La Crise de 1839-41»**. Le Caire, Soc. Royale de Géographie d'Egypte, 1930.

(٨) Ditto, pp. XIII-XIV, de L'Introduction.

(٩) Ditto, pp. XX-XXI.

(١٠) Ditto, pp. XLVIII-XLIX.

(١١) Helen Ann Rivlin: **«The Agricultural Policy of Muhammad Ali in Egypt»**. Cambridge, Mass, Harvard Univ. Press, 1961.

ولهذا، الكتاب طبعة عربية، لم نعتمد عليها في هذا المقال، لأنها غير موجودة في بيروت، فيما نعلم هي: هيلين آن ريفلين: **الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر**، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

(١٢) لم يذكر ادوار سعيد ريفلين في كتابه.

(١٣) H. Rivlin: **Op. cit**, VIII-IX.

(١٤) ثمة كتابات فرنسية معادية لمحمد علي أيضاً، وإن كانت قليلة نسبياً، انظر مثلاً:

- P.N. HAMONT: **«L'Egypte Méhémed-Ali»**. Damas. 2 Vol., Paris, Léautey et Lecomte, 1843.

(٥) عبدالرحمن الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨؛ [جـ ٤ وفيات ١٢٢١، جـ ٦ حوادث صفر وربيع الثاني ١٢٢٢].

(١٦) راجع علي باشا مبارك: **الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها** ط ١، المطبعة الاميرية. [١٣٠٤ هـ. جـ ٨

(ص ص ٢٦، ٥٩ - ٦٤، ٨٦ - ٨٧)؛ جـ ٩ (ص ص ١٦ - ١٧، ٦٥)؛ جـ ١١ (ص ص ٩٨ - ٩٩) ... الخ.].

(١٧) راجع في هذا: عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم: **الريف المصري في القرن الثامن عشر**، جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٧٤، وكذلك:

– André RAYMOND: **«Artisans et Commerçants au Caire au XVIII ième** siècle», Damas. I.F.D., 1973.

(١٨) استمرت الحروب «الجاكية» قروناً في فرنسا واسبانيا والمانيا وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا في العصر الوسيط.

(١٩) Robert OWEN and T. BLUNSUM: **«Egypt: The Country and its people»**. London, The Queen Ann Press Ltd., 1966.

(٢٠) **Ditto**, pp. 20-21.

(٢١) Alan. R. Richards: **«Primitive Accumulation in Egypt, 1798-1882»**. Review, vol. 1, No. 2, Fall 1977, pp. 3-49.

(٢٢) – **Ditto**, p. 14.

(٢٣) – **Ditto**, p. 17.

(٢٤) – **Ditto**, pp. 3-4.

(٢٥) – **Ditto**, p. 5.

(٢٦) نقصد بهذا اللفظ المعنى المحايد سياسياً للحركة القومية (National)، وليس المعنى «العروبي».

(٢٧) محمد فريد: **كتاب البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية**، ط ١ - المطبعة الاميركية ببولاق مصر المحمية، القاهرة، ١٣٠٨ هـ.

(٢٨) المصدر نفسه، (ص ٣).

(٢٩) المصدر نفسه، (ص ١٩٥).

(٣٠) المصدر نفسه، (ص ١٠٥).

(٣١) عبدالرحمن الرافعي: **عصر محمد علي**، النصوص المذكورة من الطبعة الثالثة الصادرة عام (١٩٥١) عن مكتبة النهضة المصرية.

(٣٢) المصدر نفسه، من مقدمة الطبعة الأولى.

(٣٣) المصدر نفسه، (ص ص ٨ - ١٠).

(٣٤) أسسها محمد شفيق غربال، ومن أشهر علمائها المرحوم الدكتور أحمد عزت عبدالكريم.

(٣٥) محمد أنيس والسيد رجب حراز: **التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث** - دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٢؛ (ص ص ٩٥/٩٦، ١٠٥).

(٣٦) E. TARLE: **«Napoleon»** Moscou, E.L.E., 1958, p. 80.

(٣٧) Anouar ABDEL-MALEK: **«East Wind»**, **Review**, Vol. 1, No. 1, Summer 1977, pp. 57-64.

(٣٨) Peter GRAN: **«Islamic Roots od Capitalism: Egypt 1760-1840»**, Austin, Univ. of Texas Press, 1979.

(٣٩) **Ditto**, p. XII.